الفصل الخامس

تجديد المسلمين

1. إشكاليات الفجوة بين الإسلام والمسلمين.
2. إشكاليات الفهم، و«المشروع الحداثي» الذي لم يحققه المسلمون بعد.
3. تغيير رؤية العالم Worldview.
4. وحدة البنية الحاكمة للتفكير الأسطوري في الدين والسياسة.
5. تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين».
6. معنى الدين في خصوبته الأولى ضد التراث الديني الذي صنعه البشر.
7. تجديد مفهوم الطاعة في الدين.

الفصل الخامس

تجديد المسلمين

1- إشكاليات الفجوة بين الإسلام والمسلمين

مع مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا على ظهور الإسلام، لا تزال الفجوة واسعة بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام (قرآنًا وسنةً صحيحةً) يقدم نموذجًا عالميًّا للدين الذي يلائم الطبيعة الإنسانية، ويعترف بالتنوع الكوني والإنساني، ويؤكد أن التعددية سنة إلهية، ويميز بوضوح بين البشري والإلهي.

إن الإسلام دين يؤمن بالتطور والتغير، ويعطي مساحات واسعة للاجتهاد البشري ومراعاة المصالح المرسلة، والاستحسان... إلخ، بينما المسلمون يعيشون في جمود فقهي منذ أكثر من سبعة قرون، وفي خطاب وعظي إنشائي فارغ ومنفصل عن حياتهم اليومية.

ولا يزال المسلمون يخلطون بين مورثاتهم الاجتماعية التي ورثوها من بيئتهم والتصور الإسلامي النقي المستمد من القرآن العظيم والسنة المطهرة الصحيحة، وهم يخلطون بين العبادة الحق والعبادة المزيفة، فلا يزال

الكثيرون منا يقيمون علاقتهم مع الله من خلال الطقوس والمظهر فقط، وينسون المعاملات والصدق والالتزام والدقة وإتقان العمل.

وهذا الفريق يظن أن النجاة في الدنيا والآخرة تتوقف على بعض المظاهر الشكلية والأقوال الجوفاء، وليس من خلال الالتزام والمسؤولية، فسبيل الخلاص عندهم في الشعارات والالتزام الصوري والمظهري، وليس في ممارسة العمل البنّاء في تنمية بلادهم والعالم، وهم يخلطون بين العبادة الحق في الدين والتي تقيم علاقة فعالة بين الإنسان والله فتمده بدافع شخصي متجدد لممارسة دوره في إعادة بناء العالم، وبين العبادة المزيفة التي يمارسها المراؤون، أو التي يمارسها الذين يخدعون أنفسهم ويظنون أنهم يسترضون الله تعالى بأداء بعض الطقوس ثم يسعون في الأرض فسادًا؛ فيغشون ويكتمون الشهادة ويشيع بينهم عادة النفاق والرياء وسيادة مبادئ الإهمال والغدر وعدم الالتزام بالوعود!

كما يخلط كثير من المسلمين بين معتقدهم الديني ومواقفهم السياسية ذات الطابع الإنساني المتغير. إن الإسلام يشتمل على أصول تحقيق العدل والإنصاف. هذا شيء لا شك فيه، لكن الخطل يكمن في أن يعتبر البعض أن مواقفهم السياسية المتغيرة والمرتبطة بالمصالح الشخصية والأيديولوجية والطبقية التي ينتمون إليها هي تعبير عن الإسلام الخالد نفسه!

والخطورة الحقيقية في عدم التمييز بين الثابت والمتغير في الأحكام الشرعية، وبين قطعي الدلالة من النصوص وظني الدلالة منها، وبين المحكم والمتشابه في القرآن، وأيضًا عدم التمييز بين الأحاديث المتواترة والأحاديث الآحاد، والأحاديث الصحيحة النسبة إلى الرسول الكريم والأحاديث الضعيفة والموضوعة كذبًا عليه ﷺ.

وبطبيعة الحال ينتج عن ذلك الخلط تضخم تشريعي مكبل للإبداع والحياة الإنسانية، كما تنتج منظومة من الخرافات والمعتقدات والأحكام غير المنضبطة، ومجموعة من القيم المعكوسة التي تولد عقولًا مغلقة وهشة، يمكن بسهولة قيادتها نحو ممارسة الإرهاب ليس ضد الآخر فحسب بل ضد أبناء الدين الواحد والوطن الواحد.

ولعل هذا هو السبب في النقد غير العادل الذي يوجهه المؤكدون على الطابع التاريخي للدين، والذين يركزون - من وجهة نظري - على رؤية الجزئي والسلبي والمؤقت فيما يدخل الفكر الديني نتيجة الظروف التاريخية ونتيجة الجهل والسطحية، دون أي تمييز بين الدين من جانب والفكر الديني من جانب آخر، ودون أي تمييز بين الإسلام في نقائه الأول وبين المسلمين في ممارساتهم التاريخية التي تصيب وتخطئ.

ويتجاهل الماديون حقيقة أن التاريخ الديني لا يقدم على الدوام ما هو جزئي ومؤقت ومرحلي، وإنما يقدم كذلك ما هو ذو طابع كلي وإيجابي ودائم. ولكن هذا لا يعني أنهم لم يكونوا مُحقين في نقدهم لأتباع الدين عندما حولوا «فهمهم» للدين الأصلي إلى حقائق نهائية ومؤسسة وكهنوت يركز على الطقوس والمظاهر أكثر مما يركز على نقاء الضمير والفضيلة واتساق الظاهر والباطن، ويركز على الشكلي والسلطوي والقهري أكثر مما يركز على الجوهري والعقلي والإنساني.

ويبدو - من وجهة نظري - أن هذا قدر كل دين، عندما ينسى أتباعه في عصور الانحلال والتراجع الطبيعة الأصلية والمقصد الحقيقي له. ولهذا نجد أن محمدًا ﷺ كان يدرك خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، ويخشى من «البدع» التي تفقد الدين جوهره وتتحول فيه الوسائل إلى غايات،

والنوافل إلى فروض، والشكليات إلى جوهريات، والفروع إلى أصول، والعادات الاجتماعية إلى واجبات دينية!.

وهنا لا بد أن نفهم أن تحذير محمد (عليه الصلاة والسلام) كان من «البدع» في مجال العبادات، وليس من «الإبداع الإنساني» في مجال الحياة. ولذا فإنه في الوقت الذي حذر فيه من الأولى، دعا إلى تجديد فهم المسلمين للدين في جانبه المتعلق بالحياة، بغية تخليص فهم الدين من العنصر التاريخي ذي الطابع المؤقت الجزئي والعرضي، والتدبر والتنقيب لاكتشاف ما هو دائم وكلي وجوهري ومع ذلك يتنوع في معناه ليلائم التطور الحادث في ظروف الناس والمجتمع والتاريخ؛ ولذلك فإن المفسرين الأوائل عددوا المعاني للآية الواحدة واللفظ الواحد، ليس فقط في نطاق التفسير العقلي أو التفسير بالدراية، بل أيضًا في نطاق التفسير بالمأثور عند السلف القائم على تعددية مدهشة لا يفهمها أهل الجمود في عصرنا.

2- إشكاليات الفهم و«المشروع الحداثي» الذي لم يحققه المسلمون بعد

بقدر وجود فجوة بين «فهم الغرب» و«الإسلام الأصلي»، توجد فجوة من نوع آخر بين «فهم المسلمين» و«الإسلام الخالص».

والحل ليس هو تجديد الإسلام، بل تجديد المسلمين. وفي ظني، إن هذا سوف يقضي على الفجوتين في وقت واحد.

كيف؟

إن تأسيس عصر ديني جديد يجرنا إلى مجموعة من الإشكاليات الحقيقية

التـي تتعلق بواقع المسـلمين اليوم وعلاقتهم بالإسـلام الحقيقي؛ وهي علاقة تقوم على فهم هش ومزيف، ولذلك ازدادت الفجوة بين المسـلمين والإسلام. وهذه الفجوة، لا تُسْـأَل عنهـا فقط الظروف التاريخيـة والاجتماعية، وإنما يُسـأل عنهـا أيضًا «الخلـل في طرق التفكـير» وهو خلل جاء نتيجـة التعليم القائم على الحفظ والتلقين لا الفهم والتدبر، والمصيبة أن من يحاول الفهم لا يُعمل عقله، وإنما يستعير فهم الأقدمين أو يستورد فهم الغرب!.

وتتمثل إشكاليات الفجوة في الإشكاليات الآتية:

لماذا يحصر المسـلمون أنفسـهم في جانب ضيق: نصف الجسـد الأسفل، الجنـس، الزوجات، الطقوس .. بينما رؤية الإسـلام أوسـع من ذلك بكثير: الكون، الإنسانية، الحضارة، التاريخ، العدالة الاجتماعية، الإنصاف؟

لمـاذا يفهـم البعـض تعاليم اللـه على أنهـا تعاليم شـكلية حرفيـة تتعلق بالظواهـر أكـثر ممـا تتعلق بالبواطـن؛ ومن ثـم حوّلوها مـن تعاليم للروح والجسـد معًا إلى تعاليم للجسد فقط، وحولوها من تعاليم للسلوك إلى تعاليم للمظهر والشكليات بوجه عام؟!

والمفارقة المتجددة: لماذا يفشـل المسـلمون بينما هم يؤمنون بدين عظيم عالمي يحمل بداخله كل عناصر التطور؟

لماذا انهزم المسـلمون في الماضي أمام التتار بينما انتصر عليهم الإسـلام؟! ولماذا ينهزم المسلمون منذ قرون أمام الغرب، ولا يزال الإسلام صاعدًا؟!

ثم لماذا فشـل المسـلمون في اسـتعادة ماضيهـم المجيد الذي تميـز بالقوة والإنجـازات الحضاريـة، والـذي أعقبه فـترة غلب عليهـا التدهور الخطير والسقوط في بئر التخلف بل والتهميش؟

مـا الأخطاء التي أدت بهم إلى هذا المصير؟ ولماذا؟ وما الذي يقتضيه ذلك من تحركات في المستقبل؟

ومـا أسـباب الفشـل في المصالحة بـين الإخـوة الأعداء: «الإسـلاموية» الأصولية في مقابل الإسلاموية الليبرالية؟

ولماذا فشلت التيارات الأصولية في اتخاذ موقف عقلاني واقعي في مواجهة تيار العولمة المتسارع الذي يحمل اللهجة الأمريكية؟

ولمـاذا فشـلت في تحقيـق حالة جديـدة من الانسـجام بين «الإسـلام» و«المعاصرة» بشـكل يمكّن المجتمع الإسـلامي من اللحاق بالركب ودخول الألفية الجديدة بخطى واثقة تعتمد على الثقافة والتمدن؟

هـذه إشـكاليات تحتـاج إلى إجابـة، وهـي أيضًا شـجون تثيرهـا حالة «التناقضـات» التي يعيشـها العـالم الإسـلامي والتي عجز التيار السـياسي الإسـلامي عن حلهـا، ومن ثم عجز عن تقديم نمـوذج عصري حداثي يقرب الإسلام من العالم، ويقرب العالم من الإسلام.

لكن إلى متى سوف تستمر هذه الإشكاليات؟

إنها فعلًا إشـكاليات حقيقيـة، وتحتاج إلى حـل لا في الكتب والمقالات، بـل في الواقـع المرير الذي ينظر فيه العالم إلى الإسـلام باعتباره أيديولوجية للإرهاب! والمسـؤول عن ذلك ليس قصور النظـرة الغربية فقط التي تخلط بـين جماعـات الإرهاب والإسـلام، بل المسـؤول عـن ذلك أيضًا المسـلمون بقصورهم وضعفهم وعصبيتهم وتخلفهم عن تقديم مشروع علمي وحضاري متمدن يواكب العصر.

إن آلاف الخطب العنترية وآلاف العمليات الإرهابية لن تحل أي إشكال من الإشكاليات السابقة، بل سوف تزيدها تعقيدًا، وهذا ما برهنت عليه المائتا عام الأخيرة. ومع ذلك لا تزال الخطب الجوفاء مستمرة، ولا تزال العمليات الإرهابية جارية!

إن المشروع العلمي الحداثي هو الإجابة الأساسية التي يمكن تقديمها لتجاوز العيوب التقليدية التي يقع فيها الخطاب الغربي، ومن تلك العيوب ذلك الطابع الذي يسيطر على الخطاب الغربي في اتهام الإسلام جزافيًّا ودون برهان حاسم: إما بضعف البعد الروحي، أو بالتخلف الديني المناهض لحركة العلم، أو بالإرهاب!

وقد جاء الحكم الأول نتيجة «المقارنة المعكوسة» بالمسيحية؛ حيث لا ينظر للإسلام وفق جدليته الخاصة، بل باعتباره انعكاسًا مقلوبًا لتاريخ المسيحية. فإذا كانت المسيحية رهبانية روحية، فإن الإسلام حسي مادي. وهكذا جاء الحكم على الإسلام بنقص الروحانية نتيجة عملية قلب عكسية.

في حين جاء الحكم على الإسلام بالتخلف الديني المناهض لحركة الارتقاء العلمي نتيجة «قياس المثل»، فإذا كانت المسيحية قد أعاقت حركة العلم في أوروبا، فإن الإسلام كذلك قد أعاق حركة العلم في الشرق! وهذا بالطبع موقف الاستشراق العلماني المناهض للكهنوت، لكن يوجد موقف آخر اتخذه الاستشراق التبشيري الذي قرن بين تقدم أوروبا والدين المسيحي من ناحية، وبين تأخر الشرق والدين الإسلامي من ناحية أخرى!

بينما جاء الحكم على الإسلام بالإرهاب، نتيجة «الخلط» بين الإسلامِ دينًا

خالصًا وعقولِ قطاع من المسلمين! وتستمر المغالطة وتتسع لتزعم أنه إذا كانت المسيحية مسالمة فالإسلام محارب!

ولا يريد أحد منهم أن يفهم أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية عادلة، دفاعًا عن العرض والدم والأرض والحرية، وتحقيقًا للعدالة الاجتماعية والقانونية. بينما المسلمون يظهر في طوائف منهم - منذ أمد بعيد - مفاهيم مغلوطة عن الجهاد بوصفه إكراهًا على الإيمان، وبوصفه فرضًا للرأي الواحد. وتمتد المفاهيم المغلوطة لتواجه الرأي المخالف بالحديد والنار! ولا يزال يسيطر على قطاعات كبيرة منهم الرؤية الأحادية للعالم، بينما الإسلام نفسه يعترف بالتنوع البشري، ويدعو للتعايش الإنساني، ويدعو إلى قيم وأخلاق التقدم. وهذا هو «قلب الحداثة» التي لم يدخلها المسلمون المعاصرون حتى الآن!

3- **تغيير رؤية العالم** Worldview

إن تجديد المسلمين يقتضي أول ما يقتضي تغيير رؤية العالم Worldview في مخيلتهم؛ لأن هذه الرؤية هي الأساس النظري للفهم والتفكير، وهي التي تضع المحددات التي في ضوئها يتشكل الفعل وطرق التعامل والتفاعل مع العالم المحيط وعناصره.

ورؤية العالم في تصوري - ولا يعنيني هنا إن كنت متفقًا أو مختلفًا مع إمانويل كانط أو فيلهِلم دلتاي أو غيرهما - أقول رؤية العالم هي الإطار العام الذي نفهم به كل ما يحيط بنا: الكون، الحياة، الناس، مستويات الوجود، الثقافات العالمية، بل هي الإطار الذي نفهم به أنفسنا أيضًا؛ لأن

رؤية العالم هي المجموعة الأساسية من التصورات الافتراضية عن العالم وتتضمن في داخلها كتلة المعتقدات الكلية التي يحيا بها الإنسان؛ وفي ضوئها يضع الوعي الجمعي للناس علاقاتهم مع العالم، ونجد لها انعكاسات واضحة على الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية.

وعلى هذا فإن وظيفة الرؤية هي وظيفة معرفية، وهي نقطة البدء في تغيير المسلمين؛ فالمسلمون اليوم - أو أغلبهم - ببساطة يملكون رؤية عقيمة عن العالم، وهي رؤية تتقاطع مع الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم (التي حاربها الإسلام الأول لكن المسلمين في عصور التراجع ارتدوا إليها)، وهذه الرؤية السحرية لا تخرج عن مجمل رؤية العصور الوسطى الأوروبية. والغرب والشمال والشرق الأقصى يتقدمون علينا لأنهم ثاروا على هذه الرؤية السحرية اللاهوتية، وكافحوا من أجل تكوين رؤية علمية للعالم. وهذه الرؤية هي الأساس النظري لكل مكتسباتهم العلمية والحضارية وتفوقهم علينا في التكنولوجيا، والعلوم الاجتماعية، والطبيعية، والفنون، والعلوم التطبيقية.

إن الرؤية السحرية تقوم على رؤية العالم محكومًا بالسحر والسحرة والجن والعفاريت والأشباح والأعمال السفلية تارةً، والتدخلات الغيبية الخارقة تارةً أخرى. أما قوانين الطبيعة فهي شيء طارئ وثانوي، والعلوم الرياضية والطبيعية من النوافل في التعامل مع الكون، وأيضًا العلوم الإنسانية والاجتماعية هي آخر شيء يمكن اللجوء إليه لحل مشاكل المجتمع أو الفرد، بل هي غير حاضرة في أي منهج يدرس العلوم الدينية التي تعتمد كلية على النقل والحفظ والترديد!

والعالم باختصار محكوم بقوى غيبية تربط وتنظم الأشياء بصورة منافية للقوانين العلمية التي تحكم الطبيعة في الرؤية العلمية. ومن هنا تكون الردة - دون وعي - إلى تصورات الأديان السحرية التي انتبذها الإسلام.

ولنقف قليلًا عند الفروق الحقيقية بين الإسلام الأول والرؤية السحرية التي تعد إحدى سمات الخطاب الديني في عصور التراجع، وهذه الفروق - من وجهة نظرنا - تكمن في الجوانب الآتية:

يعتمد السحر على التأثير في الأشياء عن طريق كائنات شيطانية أو أرواح أو تعاويذ أو كلمات أو قوى غيبية كامنة في بعض الأشياء المادية، أما الإسلام الأول فينص على أن كل شيء في الكون خاضع لقانون السببية Principle of Causality، وهو المبدأ الذي يقرر أن لكل ظاهرة سببًا، وأن لا شيء يحدث من لا شيء، وكل ما يظهر للوجود فلوجوده علة، وأن الأسباب تتبعها النتائج المترتبة عليها.

والسببية من مبادئ الطبيعة، وأيضًا من مبادئ الفكر، وهي مبدأ قرآني راسخ، فالله - سبحانه - كما يقول ابن القيم: «ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني القدري ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح في العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء؛ فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة، كل ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات. والشرع كله أسباب ومسببات،

والمقادير أسباب ومسببات، والقدر جار عليها متصرف فيها؛ فالأسباب محل الشرع والقدر. والقرآن مملوء من إثبات الأسباب... ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطر؛ ولهذا قال من قال من أهل العلم: تكلم قوم في إنكار الأسباب فأضحكوا ذوي العقول على عقولهم، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة...» (ابن القيم، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل).

ومن هنا يجب إعادة ضبط هذا العنصر في رؤية العالم التي يجب أن ينطلق منها أي خطاب ديني جديد، باستبعاد الرؤية السحرية المنكرة للسببية من طرق تفكير المسلمين، واستعادة الرؤية العلمية التي حكمت تقدم طرق التفكير العلمي والتي أدت إلى تقدم العلوم الرياضية أولًا، ومن بعدها العلوم الطبيعية، ثم العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي أكدها التصور القرآني للعالم بوصفه محكوما بالسببية الطبيعية وليس بقوى سحرية أو ميتافيزيقية خارقة.

والمسألة هنا لا تتعلق فقط بالعلم وطرق إنتاجه، بل تتعلق بضرورة تغيير طرق تفكير الناس العادية في الحياة اليومية وفي العمل والمجتمع والسياسة، ومن ثم يجب فض الانفصام بين العلم الذي يُدرس في الكتب وطرق تفكير رجل الشارع والمشتغل بالدين أو الإعلام أو غيره من منابر الرأي والتعليم والثقافة.

4- وحدة البنية الحاكمة للتفكير الأسطوري في الدين والسياسة

إن العلاقة بين «المتناهي» و«اللامتناهي» من أهم الفروق الحقيقية بين

الإسلام الأول برؤيته للعالم والرؤية السحرية اللاهوتية التي تعد إحدى سمات الخطاب الديني في عصور التراجع؛ حيث إعادة بناء العالم طبقًا للتفكير العقلاني في الرؤية الأولى أو إعادة بنائه طبقًا للخرافة والأسطورة في الرؤية الثانية.

فالعلاقة بين «المتناهي» و«اللامتناهي»، أو بين الإنسان والله، تقوم في الرؤية السحرية اللاهوتية على العلاقة بين «المتناهي» و«متناهٍ آخر» وإن كان ذا قدرة أكبر، أي العلاقة بين الإنسان من جهة والساحر والجن أو الأرواح أو الأولياء أو رجال الدين أو الأئمة من جهة أخرى.

فهي علاقة تقوم على الوساطة، وقد تكون هذه الوساطة ساحر أو مشعوذ أو حتى رجل دين أو مشعوذ أو ولي من الأولياء، وعندما يتعلق الأمر بالسياسة فهي تقوم على وسيط سياسي يحدد معالم الحق والباطل ويحدد الصواب والخطأ، أما الفرد فهو مجرد منفذ للتعليمات والأوامر دون تفكير مستقل ودون حرية شخصية ودون رأي شجاع أو متفرد.

فالبنية الحاكمة للتفكير الأسطوري في الدين هي نفسها البنية الحاكمة للتفكير الاتباعي الأعمى في السياسة؛ ففي التفكير الديني القائم على الرؤية السحرية اللاهوتية يكون الإنسان الفرد منسحقًا أمام الوسطاء بينه وبين الله، وفي التفكير السياسي القائم على الرؤية السحرية اللاهوتية يكون الإنسان الفرد منسحقًا أمام المتحدث باسم الله على الأرض!.

إن التفكير الديني الأسطوري يضع «وسطاء» يشغلون المسافة الكائنة بين الإنسان والله، والتفكير السياسي الأسطوري يضع «وسطاء من نوع آخر» بين الإنسان والحق العملي.

ونجد في التفكير الديني الأسطوري وفي التفكير السياسي الأسطوري معًا، أن «الحق يُعرف بالرجال»، فرجال محددون هم مقياس الحق والحقيقة، وليس الحق قيمة في ذاته، ولا تنبع معاييره من داخله ولا من تطابقه مع الواقع أو مع الكتاب؛ فرجال معينون إن قالوا فقد أصابوا حتى لو كان قولهم مخالفًا لكل كتاب، وحتى لو صرخ الواقع ببطلانه!.

والقداسة ليست لكتاب الله ولا سنة رسوله الصحيحة، بل للمزايدين على الدين، والذين يرفعون شعاراته لفظًا ومظهرًا لا سلوكًا ولا عملًا ولا دولةً.

في التفكير الديني الأسطوري نرى القرآن للزينة المقدسة، وفي التفكير السياسي الأسطوري نرى القرآن على أسنة السيوف، وهي كلمة حق يراد بها باطل.

وفي التفكير الديني الأسطوري يتم تقديس «الدين» أكثر من «رب الدين»، وفي التفكير السياسي الأسطوري يتم تقديس التفسير السياسي للدين على حساب مقاصده الكلية الأكثر رحابة.

وعلى عكس التفكير الديني الأسطوري والتفكير السياسي الأسطوري، نرى الإسلام الأول لا يعطي أي مجال للوسطاء؛ فالعلاقة مباشرة بين «المتناهي» و«اللامتناهي»، أو بين الإنسان والله، ولا مجال لسلطة ساحر أو عفريت أو ولي أو رجل دين أو مرشد، ولا وجود لوسيط سياسي يحدد معالم الحق والباطل ويحدد الصواب والخطأ، ولا مجال للاتباع الأعمى؛ والحق يعرف بتطابقه مع الكتاب والواقع الخارجي المتعين، ولا وجود للمتحدثين باسم الله على الأرض، وكل البشر يصيبون ويخطئون.

إن التفكير الديني الأسطوري والتفكير السياسي الأسطوري، كليهما يقوم على حيلة فكرية سلبية مخاتلة؛ أي مخادعة. والخَتْل أَي الخِدَاع .. وخَتَلَ الذِّئبُ الصَّيدَ: تَخَفَّى له؛ وكلُّ خادع خاتِلٌ وخَتُولٌ. والمُخاتَلة: مَشْيُ الصيّاد قليلًا قليلًا في خُفْية لئلا يسمعَ الصيدُ حِسَّه، ثم جُعل مثلًا لكل شيء وُرِّي بغيره وسُتِر على صاحبه. (ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب). وهذا عين ما يحدث في الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم، حيث الوقائع العينية خافية، وأقوال قادة القطيع ترتفع وتصول وتجول وتتخفى وراء أقنعة كلمات حق يراد بها باطل، ولذا تنجح في أن تخفي الواقع عن أعين الأتباع!

فلا فرق بين سحر السحرة بالمعنى الحرفي، وسحر قادة القطيع في بعض المذاهب الدينية المؤدلجة، وسحر الخوارج الجدد في السياسة؛ فكلهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: 116].

لكن نجاح السحرة في إرهاب أو استرهاب الناس، لم ينهِ القصة! فللقصة نهاية أخرى ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: 118 - 119].

ولا يمكن أن نستعيد في عصرنا "عصا موسى"، لكن يمكن أن نستعيد الإسلام الأول، والعلم الحديث، والوطنية، ووحدة الصف، والأخذ بالأسباب، والتخطيط الإستراتيجي، والعمل الجاد، وهي كلها "عصا موسى الجديدة" التي ننتظرها ضد الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم وأتباعها الذين خضعوا لأكبر عملية "تغييب" ضد الدين والوطن؛ نتيجة وقوعهم في الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم التي تصنع التقليد الأعمى والتعصب

المطلق الانتحاري، غافلين عن أن رؤية الإسلام الأول للعالم هي التي صنعت رجالًا نبذوا التقليد واتباع البشر للبشر دون دليل أو تعقل أو برهان.

وتلك الرؤية للعالم عندما أثرت في أوروبا في نهاية العصور الوسطى صنعت الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر الذي رفض الوساطة بين الإنسان والله، ورفض التفسيرات المغلقة الثابتة المتحجرة التي قدمها الكهنوت للكتاب والكون.

ومن هنا كانت نقطة انطلاق أوروبا نحو عالم جديد انكسرت فيه الرؤية السحرية اللاهوتية للعالم، وبدأت رويدًا رويدًا تشكل لنفسها رؤية جديدة للعالم.

5- تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين»

من الخطوات اللازمة لتغيير «رؤية العالم Worldview» الجهولة التي أنتجت كل الظواهر السلبية عند المسلمين المعاصرين، تغيير طريقة إدراك المسلمين لـ «مفهوم الدين»؛ لأن المسلمين شئنا أم أبينا تتكون عندهم رؤية العالم من خلال الدين، حتى لو كانوا مُفْرِطين أو مُفرِّطين في الدين.

وهذا التغيير لا يمكن أن يتم دون تغيير «مفهوم الدين» في عقولهم؛ لأن المفهوم هو شرط أولي قَبْلي بلغة الإبستمولوجية أو نظرية المعرفة، وأي تجديد لاحق لطرق فهم العقائد والشرائع وفق معناها النقي سيفشل فشلًا ذريعًا إذا لم يكن المفهوم الكلي للدين منضبطًا في عقول الناس، فالمفهوم الكلي الأولى يلون كل ما يتلوه بلونه الخاص، فهو بمثابة العدسة التي ينظر منها المرء، فإذا كانت حمراء سيرى كل شيء أحمر، وإذا كانت صفراء سيرى كل شيء أصفر، وإذا كانت سوداء سيرى كل شيء أسود! وهكذا.

إن مفهوم الدين هو ببساطة «المعنى العام» للدين، فما المعنى الذي يسود في عصور التخلف والتراجع؟ وما المعنى النقي الذي يجب أن يسود إذا أردنا تجديدًا حقيقيًّا للخطاب الديني وتغييرًا حقيقيًّا في مسْلِمي المستقبل؟

المعنى الضيق للدين هو مجموعة من الطقوس والشعائر إذا أداها المرء ضمن الخلاص ودخول الجنة حتى لو أهمل في عمله أو خدع الناس أو خان أو كذب أو مشى بالنميمة (وفي عصرنا: حتى لو انتخب بالباطل أو قتل أو حرق أو دمر أو نهب أموال الشعب أو الحكومة أو الدول الأخرى أو أصحاب الديانات أو الآراء المخالفة). فأداء بعض الشعائر عند المخادع لنفسه يمكن أن يطهره من كل الحقوق التي نهبها أو أضاعها أو تعدى عليها، لا فرق عنده بين الحق الخاص والحق العام ولا حتى حق الله! فبمجموعة من الطقوس يُمكن - في تصوره - أن يُرضي الله!

إن هذا المخادع يتصور أن الدين شيء والمعاملات شيء آخر، الدين مجرد نِيّات وأقوال ومظاهر، وهذا المخادع ليس هو فقط المتزمت الجهول الذي يزايد على خلق الله، بل هو أيضًا الفنان المفرط الذي يعتبر الدين مجرد عمل قلبي، وهو أيضًا المجاهد الزائف الذي يعتبر الدين قتلًا وسفكًا و إجبارًا على الإيمان، وهو أيضًا رجل الدين الذي يتعامل مع الدين باعتباره وظيفةً و«سبوبةً»، وهو أيضًا متصوف عصور التراجع الذي يعد الدين مجرد حلقة ذكر، وهو أيضًا الإعلامي الذي يرى في الدين مادة خصبة للإثارة!.

وتكوين خطاب ديني جديد بالمعنى الذي نفهمه لا بد أن يقوم على تغيير فهم المسلمين للدين، وهنا سوف نكتشف أن تجديد «مفهوم الدين» ليس تجديدًا بقدر ما هو عودة إلى المعنى الأصلي للدين قبل أن يتلون بثقافات

بدائية وعقول مغلقة ونفوس مخادعة وجماعات تطلب السلطة بالدين وترفع المصاحف على السيوف لحسم صراع الكراسي والنفوذ والغنائم!.

إن تجديد «مفهوم الدين» إذن يكون بالرجوع إلى المعنى الأصلي للدين، وهذا المعنى لا يمكن الوصول إليه إلا بتحليل فلسفي لمفهوم الدين في علوم اللغة والنفس والاجتماع، وأيضًا في تاريخ الفلسفة التي اقتربت من الدين أحيانًا، وابتعدت عنه أحيانًا أخرى، وعادته في قطاع منها، واحتضنته في قطاع آخر. وأخيرًا تحديد مفهوم الدين في النص الديني ذاته، أي كيف يحدد الدين ماهيته بنفسه؟ وماذا يقول عن نفسه؟ وكيف يرى ذاته في مرآته هو لا في أي مرآة أخرى؟!

إن إحدى مهام تكوين خطاب ديني جديد، تستلزم تعيين وتحديد جوهر وماهية الدين من حيث هو دين، ومن ثم معرفة وظيفة الدين وتخليصه من النظرة الجزئية والضيقة وأيضًا من الاستغلال السياسي أو الاجتماعي.

ولن نصل إلى هذا الهدف من طريق قصير، بل عبر طريق طويل بعض الشيء من التعقب والتحليل.

ولنبدأ بتحليل فلسفي للمفهوم اللغوي للدين، وأرجو أن يتحملني القارئ بعض الشيء، فليست هذه الأفكار للاستهلاك الصحفي، وإنما هي رغبة حقيقية في تغيير معان راسخة في عقول تكونت في مدارس التقليد والاتباع الأعمى، وتم تربيتها على السمع والطاعة وإلغاء العقل، وتحصيل «المعلومات المعلبة».

عرف الرازي الدين لغويًّا فقال: «الدِّينُ بالكسر: العادة والشأن. ودَانَهُ يدينه دِينًا بالكسر: أذله واستعبده، فَدَانَ. وفي الحديث: «الكيِّس

من دان نفسه وعمل لما بعد الموت». والدِّينُ أيضًا: الجزاء والمكافأة، يقال: دَانَ يدينه دِينًا أي جازاه، يقال: «كما تُدِينُ تُدَانُ»، أي كما تُجازِي تُجازَى بفعلك وبحسب ما عملت. وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: 53] أي لمجزيون محاسبون. ومنه: الدَّيَّانُ في صفة الله تعالى. والمَدِينُ العبد، والمَدِينةُ الأمة، كأنهما أذلهما العمل، ودَانَهُ ملكه، وقيل: منه سمي المصر مَدِينةً. والدِّينُ أيضًا الطاعة، تقول: دَانَ له يدين دِينًا، أي أطاعه. ومنه الدِّينُ. والجمع الأَدْيَانُ. ويقال: دَانَ بكذا دِيَانَةً، فهو دَيِّن، وتَدَيَّنَ به، فهو مُتَدَيِّنٌ، ودَيَّنَهُ تَدْيِينًا: وكله إلى دينه".

وإذا حللنا فلسفيًّا هذا التعريف اللغوي للدين، فماذا يمكن أن نجد؟

6- معنى الدين في خصوبته الأولى ضد التراث الديني الذي صنعه البشر

أصبحت الجماعة والحرف والنقل أوثانًا تعبد من دون الله! وصار الدين المزيف قناعًا لإجبار خلق الله على نمط رجعي للحياة، وأداةً لأغراض التمكين السياسي، ووسيلة لجمع الأموال، ومرتعًا لأهواء المفتين، وتبريرًا لسلوكيات اجتماعية متخلفة من عصور الانحطاط الحضاري، وتغلفت به «عادات» موروثة، وتلونت به جماعات المصالح، ورفعته شعارًا جموعٌ تحركها العاطفة وحماس القطيع، من دون غطاء من العقل أو الإرادة الحرة.

إن إحدى مهام تكوين خطاب ديني جديد - كما أشرنا في موضع سابق - تستلزم تحديد «جوهر الدين» من حيث هو دين، ومن ثَمَّ معرفة «وظيفة الدين» وتخليصها من النظرة الجزئية والضيقة وأيضًا من الاستغلال السياسي أو

الاجتماعي أو الاقتصادي. وربما يساعد تحليل معنى الدين في اللغة، في تحديد ماهيـة الدين، وهو ليـس تحليلًا على طريقة القدمـاء في البدء بالمعنى اللغوي ثـم المعنى الاصطلاحي، بـل تحليلًا عقليًّا للغة والاصطـلاح، وهذه أولى مهام «فلسـفة الدين» التي لا تزال غامضة في ثقافتنا، ومختلطة بحقول أخرى مثل الفلسـفة الدينية وعلم الكلام والفلسـفة الإسلامية أو اليهودية أو المسيحية، لدرجة أن بعض المختصين يقعون في هذا الخلط بين الحقول المعرفية، شـأنهم شـأن العوام الذين يرون كل شيء مثل الآخر لمجرد التشـابه اللغوي.

و إذا حللنا عقليًّا المعنى اللغوي للدين يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

من معاني الدين في اللغـة: «العادة». وربما أُعتبر الدين عادة؛ لأنه عندما يتغلغل في حياة الناس يصبح عادة؛ لكن **مأسـاتنا أن العادات أصبحت دينًا!** والمطلوب هو تغيير تلك العادات بكشـفها وفضحها وكيف أنها ليست دينًا، بـل مجرد عادات اجتماعية موروثة. ثم تكوين عادات تصبح سـلوكًا للتقدم والبناء وليس للاستهلاك اليومي أو التوظيف الأيديولوجي، وفي الوقت نفسه استعادة الدين ليصبح هو العادة؛ فالدين في إحدى معانيه في اللغة هو العادة، لكن «أي دين؟».

هل هو دين الإسـلام في نقائـه وخصوبته الأولى؟ أم هـو التراث الديني الذي صنعه البشر ليلائم زمانهم ومشـاكلهم؟ أم دين علماء السـلطان الذين أفتوا في عصورهم لحسـم معاركهم هـم لا معاركنا نحن؟ أم دين الخوارج في كل العصور الذين فهموا الدين بوصفه جبرًا و إجبارًا وجبروتًا؟

كذلك يكشف التعريف اللغوي للدين عن أنه «شأن»، والدين شأن، ربما لأن الدين شـأن إنساني محض، وحالة إنسـانية بحتة، فالدين نظام اجتماعي،

والحيوان بلا دين؛ لأنه ليس لديه هذا النظام، كما أنه لا يرتفع - فيما يشير الفيلسوف الألماني هيجل - عن مستوى الإحساس والغريزة، إلى مستوى العقل والتفكير، ولا يصعد إلى مستوى «المطلق» عن طريق الفكر، بل يظل عند مستوى الإحساس والغريزة.

إذن، الدين - هكذا ينبغي أن يكون - ارتفاع عن مستوى الإحساس والغريزة (وهو المستوى الذي تقف عنده قطعان الحيوان وأيضًا قطعان البشر)، إلى مستوى التفكير، لكن أي تفكير؟

إنه التفكير العقلي المنضبط في الاستدلال، وليس التفكير الذي ينتهجه هواة القفز على المقدمات، أو أنصار التفكير الجزئي الذي يقتطع كل شيء من سياقه الكلي، التفكير العقلي لا التفكير التبريري! ولا شك أن هذه نقطة تحتاج إلى توضيح، نرجو الوقوف عندها في موضع آخر، حتى لا نبعد هنا عن تحليل المعنى اللغوي للدين.

تشتق كلمة الدين في بعض الأحيان من فعل متعد بنفسه «دان يدينه دينا بالكسر»، أي «أذله واستعبده»، والمراد: أخضعه، وحكمه، وملك أمره، وقهره. وينطوي الدين بهذا المعنى على نوع من إخضاع أتباعه لنظام وقواعد، والتحكم في سلوكهم، وامتلاك أمور حياتهم بتدبيرها وتصريفها.

ومع أن هذا المعنى موجود في قواميس اللغة، فلا أظن أنه مقصود في أي من آيات القرآن الكريم، **فالإسلام لم يأتِ للقهر ولا للاستعباد، بل جاء لتحرير الإنسان، وتحرير اختياره، والدين بلاغ وليس إكراهًا، والرسول مذكر وليس جبارًا،** ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت: 18]، ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ

عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: 45]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: 99 - 100].

فالديـن اختيار، وهذا الاختيار مرتبـط بالحرية، وهذه الحرية قائمة على التعقـل، والله يحـب أن يأتيه عبده طوعًـا لا كرهًا، ولـو كان رب الكون - أسـتغفر اللـه - يريـد ما يريـده المتعصبون لأجـبر أهـل الأرض كلهم على الإيمان، لكنه - سـبحانه - ترك الحرية للإنسـان؛ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: 29].

إذن، المسألة تتعلق بتبليغ الحق وليس بالإجبار عليه، ومن هنا فهذا المعنى اللغـوي الذي ذكـره الرازي «... دَانَـهُ يدينه دِينًا بالكسر: أذله واسـتعبده، فَدَان»، هو فقط مجرد معنى لغوي عند بعض الناس وفي بعض الاستخدامات التـي تحـرك جماعات العنف، ولا شـأن له بالدين الخالص الذي يتأسـس على الاختيار والحرية والتعقل، لا الجبر ولا الإجبار ولا الجبروت!.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾.. هكذا حسم القرآن الأمر برمته!

7- تجديد مفهوم الطاعة في الدين

إن «الرؤيـة اللاهوتية غير العلميـة للعالم» تجد أقوى زخم لها في التقليد والاتباع الأعمى، وفي زعم امتلاك الحقيقة المطلقة في الدين والفقه والتفسير والسياسة. وسبب أصيل من أسـباب حالة التراجع العامة، والتطرف الديني والسـياسي، يكمن في هذه الرؤية المحكومة بالتقليد والتبعية المطلقة - دون

عقل نقدي - لبعض العلماء أو الدعاة، والطاعة العمياء لقادة الجماعات، والحفظ دون العقل، دون تحمل مسئولية التعامل المباشر مع القرآن والسنة الصحيحة.وذلك في حالة غريبة من مخالفة التعاليم القرآنية الواضحة، وتوجيهات النبي الحاسمة التي ترفض التقليد و إتباع ما سوى الله ورسوله.

وهذا أمر يدخل في لب مفهوم الدين، وفي التعامل الخاطئ مع هذا المفهوم، فمن معاني الدين «الطاعة»؛ حيث تؤخذ كلمة الدين - من بين ما تؤخذ - من فعل متعدٍّ باللام «دان له»، أي خضع له وأطاعه، ولذا فإن اللغويين يذكرون من معاني الدين «الطاعة»، يقول الرازي: «الدِّينُ أيضًا الطاعة، تقول: دَانَ له يدين دِينًا، أي أطاعه». ولذلك فإن الجرجاني في «التعريفات» رأى أن الشريعة تسمى دينًا لأنها تطاع، يقول: «الشريعة من حيث إنها تطاع تسمى دينًا».

والإشكالية الكبرى هنا: طاعة مَنْ؟ طاعة الله ورسوله مباشرة دون وسيط، أم طاعة عبر وسيط؟

نصوص القرآن والسنة الصحيحة واضحة في طاعة الله ورسوله مباشرة دون وسيط من رجال الدين أو الكهنوت أو المتحدثين باسم الحقيقة المطلقة من أي نوع، لكن شيوخ وقادة عصور التراجع يؤوِّلون النصوص و يفسرونها بما يضمن لهم التدخل ليكونوا وسطاء بين عامة المسلمين والإسلام! ومن تلك اللحظة التي نجحوا فيها في السيطرة على عقول الناس، دخلت الحضارة الإسلامية في حالة تراجع أمام العالم كله. وعلى الرغم من هذه النتيجة السيئة فلا أحد يستطيع أن يستنبط أن هذه أفكار باطلة بدليل أن النتائج الملموسة في الواقع شديدة الوضوح على وجود خلل! ولا يسأل أحد منهم

سؤالًا واضحًا وبديهيًّا: إذا كان ما أؤمن به من أفكار بعض الزعماء الدينيين يأتي دائمًا بنتائج سلبية في الواقع، أليس هذا دليلًا على بطلانها؟

ألم أقل لك عزيزي القارئ من قبل: إنها عقول مغلقة لا ترى حولها، عقول تربت على الطاعة العمياء للآباء والمتحدثين باسم الله، عقول منفصلة عن الواقع المعاش ومنفصلة عن القرآن والسنة الصحيحة؟!

إن الطاعة بوصفها جزءًا أصيلًا من مفهوم الدين هي طاعة للقرآن والرسول مباشرة، وليست طاعة لأي متحدث باسمهما، فلا أحد يحمل «صكًّا إلهيًّا» يستوجب الطاعة؛ لأن المسئولية في القرآن الكريم مسئولية فردية وشخصية، ولا يجوز أن يرمي الشخص مسئولية ما يفعل على شخص أفتاه أو أرشده؛ فالإسلام ضد التبعية العمياء، يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: 165 - 167].

إذن واضح أن الإسلام نبذ التقليد والاتباع الأعمى، وحمل كل فرد المسئولية بشكل شخصي؛ فهو المسئول عن اختياره، وهو المسئول عن قراره، والمرجعية فقط هي مقاييس الحق، وليست أقوال الرجال، حتى ولو كانوا في حجم وقامة الأئمة الأربعة أو غيرهم من القامات التاريخية. ولذلك يقول صديق حسن القنوجي في كتابه (أبجد العلوم: الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم): «الأئمة الأربعة منعوا الناس عن تقليدهم، ولم يوجب الله

سبحانه وتعالى على أحد تقليد أحد من الصحابة والتابعين الذين هم قدوة الأمة وأئمتها وسلفها فضلًا عن المجتهدين وآحاد أهل العلم... لأن التقليد من صنيع الجاهل».

وعلى الرغم من موقف القرآن الحاسم من قضية التقليد، وموقف علماء الأمة الأوائل، فإن المتعصبين يتحدثون كما لو كان موقفهم قائمًا على براهين محكمة ونهائية! أي إنهم يخدعون غيرهم، بل ويخدعون أنفسهم دون أن يشعروا، بأنهم أصحاب الحق في اتباع رجال بعينهم بوصفهم حاملي أختام الحقيقة المطلقة ذات البراهين المحكمة، مع أن براهينهم مليئة بجوانب الخلل التي تدل عليها النتائج السيئة في الواقع المعيش!.

وما هذا إلا لأن «الرؤية اللاهوتية للعالم» تنطوي على موقف «منغلق» غير قائم على التفكير النقدي؛ ومن ثَم لا يستطيع المتعصب أن يخرج وراء ذاته فيرى عيوب تفكيرها. إن هذا الموقف متهافت؛ خاصة أن أصحابه يؤكدون معتقداتهم غالبًا بسلطة الآباء أو القدماء أو قادة الجماعة دون برهان عقلي، ودون مراعاة الظروف المتغيرة، ودون أي احتمال لكونها ناقصة أو خاطئة أو معارضة للنصوص القرآنية المحْكمة وقطعية الدلالة.

ومن هنا فالمطلوب هو تجديد فهم المسلمين للدين، عن طريق ثورة في التعليم والإعلام، حتى تحل الرؤية العلمية للدين والعالم محل الرؤية اللاهوتية السحرية القائمة على النقل والحفظ والاتّباع الأعمى للذين وضعوا أنفسهم وسطاء بين الإنسان والله، وبين المسلم والقرآن، وبين الأمة ورسولها الكريم.